# حلي المرأة الصحراوية غرداية نموذجا
# من خلال الاطلاع الميداني

**أة/ ربيعة قريزة**
**أستاذة مساعدة أ - جامعة غرداية**

اعتمد الإنسان الصحراوي البساطة في كل شيء الأمر الذي يعكس بساطة الصحراء في حد ذاتها ولعل قدوم الصحراويين من الصحراء واستقرارهم أيضا في الصحراء جعلهم يتمسكون ببيئتهم بكل ما تحمل هذه البيئة من عادات وتقاليد.

ولقد ساهم عامل الترحال والتنقل المستمر للقبائل الصحراوية في تنوع عناصر ساكنتها وفي تعدد أصولهم ، و **تعتبر** دراسة الحلي على درجة كبيرة من الأهمية لأنها متصلة بصميم تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفنية، كما انها تعد بمثابة دراسة لمفاهيم الإنسان الجمالية وذوقه الفني ورقيه الصناعي ونشاطه التجاري، إن الحلي والمجوهرات في تاريخ الشعوب لها دورها الحضاري في بناء شخصية الإنسان، فهي مرآه عاكسة للمستوى الحضاري والإنساني الذي وصلت إليه تلك الشعوب بل وأن التصاميم والتقنيات المتبعة في إنتاج هذه الحلي تعكس الذوق العام لتلك الشعوب. ومن بين هذه الأخيرة نجد المراة الصحراوية الذين امتهنوا صناعة الحلي منذ العصور وأصبحت جزءا لا يتجزأ

من الحياة اليومية للمرأة والرجل، وهذا ما تبرزه الشواهد الموجودة في مناطق الوطن، ومنه نطرح التساؤل المحوري للمداخلة : هل يمكن اعتبار الحلي وثيقة تتحدث عن الإنسان والمجتمع والتقاليد والتاريخ أم أنها مجرد أداة تزيينية ما هي نماذج الحلي التي تزينت بها المرأة الغرداوية ؟ فيما تتمثل أهميته عندهن ؟

فللحلي مكانة خاصة في نفوس النساء الصحراويات، لذلك تجدهن يحببن اقتناءها، وتخزينها للتزيين بها في المناسبات، كما أن مكانة المرأة الاجتماعية تقاس بما لديها من حلي، حيث تتحلى المراة مهما كان مستواها الاجتماعي في حياتها اليومية باي حلية كانت ،اما في المناسبات والافراح فانها تحمل طقما كاملا من الحلي يغطي جسمها من رأسها الى قدميها ،هذا طبعا حسب مستواها الاجتماعي والاقتصادي وتبعا للعادات والتقاليد منطقتها وما يتناسب مع لباسها1 ورغم اختلاف التسميات المحلية الا ان عدة نمادج من الحلي تتشابه في شكل الزخرفة فهذه الأخيرة تعكس مدى الخبرة الجمالية لديهن، ولدى المجتمع الذي يعيش فيه، بحيث أن هذه الحلي هي تعبير حضاري يصدر عن وجدان جماعي، وخاصة حب الجمال والرغبة في تحقيقه وبرؤية فنية متميزة. وأهم ما يميز صناعة الحلي في الصحراء، كونها تحمل صدقا فنيا، رغم أن صانعها لا يستعمل إلا أدوات بسيطة .

وقد كان للمبدلات التجارية وحركة الحرفين الرحل الأثر الكبير على تنوع صناعة الحلي في المناطق الصحراوية وخاصة الواحات منها التي كانت في ما مضى مناطق عبور ومحطات أساسية للقوافل التجارية العابرة للصحراء سواء المتجهة من الشمال الى الجنوب حتى افريقيا 2 ، او تلك المتجهة من الغرب للشرق حتى مصر ، حيث امتزجت عدة تقافات مختلفة الأعراق والمشارب وقد أدى هذا الى تداخل كبير في التقنيات والزخرفة المستعملة في هذه الحلي حتى انه يصعب عليك التمييز بين الحلي المصنوع في المناطق المجاورة والبعيدة كحلي التوارق والاوراس والجزائر العاصمة نتيجة هجرة واستقرار العديد من صانعي حلي الدول المجاورة نتيجة هجرة واستقرار العديد من صانعي الحلي بمدن وقصور هذه المنطقة.

**مواد صنع الحلي الصحراوي في القديم:**

لبس الإنسان الحلي منذ عصور ما قبل التاريخ حيث عثر على خرزات أو أساور وخواتم أو دلايات ذات أشكال بسيطة مصنوعة من حجر ملون أو من عظم أو عاج أو حتى من الطين وذلك في مقابر العصر الحجري الحديث

ففي بداية العصور الحجرية كان يتخذ من الأحجار و العظام 3كما استعمل قشور بيض النعام في صاعة الحلي وذلك لتوفره في المنطقة التي اعتربت منطقة عصر حجري قديم ( المنيعة

)4 فقد تم ابتكار طريقة شبه اصطناعية لصناعة القلادات والعقود بقشور بيض النعام حيث بينت الدراسات الاثرية ذلك وقد صنعت كما يلي :

يتم التقاط وجمع قشور بيض النعام التي كانت تتوفر بكثرة ،ثم تلي عملية الثقب اين يتم تثقيب كل قطعة بالتناوب على الجهتنين حتى يلتقي الثقبين ،تتم بواسطة مثقب عظمي أو حجري غالبا ما يكون من الصوان بعدها مرحلة معايرة الحلقات وهي تقنية ابتكرت خلال العصر الحجري الحديث تقام بواسطة الحجر المحرز ، عظام الأسماك اضافة الى انه كان يستعمل من الحجارة حلي من خلال الاحجار المصقولة وتثقب مثل بيض النعام وهذا ما نلاحظه من حلي استعل خلال العصر الحجري الحديث وهو موجود بالمتحف العمومي الوطني المنيعة والصور التالية تبين لنا بعض حلي الموجود بالمتحف .

بحيث يظهر لنا أنّ الإنسان الأول كان يفكر و يهتم لمظهره و يستوحي من الطبيعة و يحب الجمال إلى درجة أنه صنع حلي ليتزين بها.

**الجلد:** اتستعمل قديما في صناعة الحلي الصحراوي اذ ان المراة كانت تميل الى ارتداء مناجد من الجلد تتخلله مجموعة من كريات الصدف والقطع النقدية ،فكانت تصنع على شكل صفوف

عمودية تغطي الصدر كله سمي هذا النوع عند اهل ميزاب ب " عسرة" تتكون غالبا من قطع نقدية عربية 5

**العنبر:** استعملت مادة العنبر في صناعة الحلي الصحراوي، كما يسمى أيضا الكهربان أو الكهرمان وعرف كذلك باسم السيتال الأصفر6

**القرنفل:** شاع استعمال القرنفل في شمال إفريقيا خاصة القبائل والأوراس بشكل واسع والأهقار، و بني مزاب والمنيعة استعمل القرنفل في صناعة السخاب

السخاب : مصنوع من مسحوق القرنفل و العطر ،يعجن ويشكل بأشكال مختلفة و يوصل بخيط كما هو موضح في الصورة كانت تستعمله العروس في المنطقة7.

**الفضة:** تعد من أكثر الصناعات انتشارا في المناطق الريفية، خاصة في منطقة القبائل الكبرى وعرف استعمالها منذ القديم، بالإضافة إلى خاصيتها الفيزيائية المتمثلة في بياضها وصفائها إضافة إلى بعدها العقائدي حيث يعتقد أنها مادة نقية صافية تحمي من كل الأمراض والعيوب،وأضيف النحاس الأحمر للأنة يتحول بسهولة من أملحه وفضلا من مرونته لا يتأكسد بسرعة كغيره بنسبة 200غ في تشكيل هذه المادة بحيث تغير من لونها قليلا لكن تكتسب مقاومة أكثر8

## حلي الفضة عند المرأة الغرداوية أواخر القرن 19:

تميزن نساء غرداية والمنيعة خلال القرن 19 بوضع إكليل او تاج رأس مغاير تماما لما نجده في المناطق الاخرى عرفت ب

**صرمية الراس**9 تتكون من عدة صفوف أفقية على شكل حبات متصلة ببعضها متبثة على قماش ،تتدلى في قاعدتها عدة نويطات او عناصر زخرفية على شكل أهلة و ايادي ، اما الاكلل المستعمل عند نساء المنيعة فيسمى بالعرصة ويتكون من عناصر مخرمة مستطيلة الشكل ترتبط مع بعضها البعض بواسطة مفاصل تسمح بتطابق الحلية مع شكل الراس تتدلى منها عناصر زخرفية على شكل أهلة او ايادي ويربط بخيط 10

**الآشناف او حلقات الاذن (المناقش):** عبارة عن حلقات مختلفة المقاس والزخارف وهي نوعان الأولى دائرية تقريبا وتزخرف قاعدتها باشكال تشبه اسنان المنشار تسمى عندنا بالمشرف او تمشرفت بالمزابية11 ومناطق مجاورة للمنطقة كانوا يزودون فوق أطرافها عناصر زخرفية واحجار كريمة يزين وسطها بصفيحة نصف دائرية مخرمة تتدلى منها سلاسل في نهايتها عناصر مختلفة ، اما النوع الثاني يسمى الخرس وهو عبارة حلقة دائرية او نصفها سميكة وبها ثقب تضاف لها عناصر زخرفية حبات الجوهر

والشنافات هي عبارة عن صفيحة بيضاوية الشكل او مستديرة يعلوها محجن لتثبيتها على الوشاح 12 وتتدلى منها عدة سلاسل تحمل عناصر زخرفية مختلفة الاشكال والاشناف او الشنوف من الحلي التي تضعها المراة دوما ولا تنزعها ، وهنا تصف المؤرخة الفرنسية إبراهاردت ذلك بقولها:" **كانت العجوزان ترتديان ملحفتين داكنتي الحمرة يشكل صوفها الكث ثنايا ثقيلة حول جسديهما ،والتسريحة وفق عاداتهم فضفائر صوف احمر و شهباء مخضبة بحناء برتقالي وفي أذنيهما المتعبتين حلقات ثقيلة بسليسلات فضية مشبوكة في المنادل الحريرية للتسريحة وعلى الصدر الهابط قلائد من قطع الفضة والعجائن المعطرة المجففة وصفائح ثقيلة من الفضة المرصعة ومع كل حركة من حركاتهما المتباعدة والبطيئة ترن كل هذه الحل والأساور والخلاخيل** " 13

**المشاريف**

**سلاسل الرقبة (العقد ):** تولي النساء الصحراويات أهمية خاصة وعناية كبيرة لعناصر الجمال .

المرتبطة بالعنق، باعتباره أحد الأعضاء البارزة التي تظهر جمال المرأة، ولذلك يعلقن فيه أنواع خاصة من القلائد التي لها أسماء ومواصفات متعددة منها "لبغداد" حيث يتم إلصاق العقيق " لخرز " في قطعة من الجلد دائرية الشكل لتحيط بالعنق14.

"أمزرد" هي عبارة عن قلادة مصنوعة من أنواع متعددة من لخرز وخاصة: أوشعيلة ولكصيا ذو اللون الأحمر والابيض وهذا النوع كانت تتزين به المراة المنيعية ذات البشرة السوداء.

**عقد تاغلت** **عقد الشعرية**

**الابزيم او الخلالة :** يرتبط هذا الاسم بخصوصيات اللباس التقليدي واساسه اللباس المعروف باللملحفة او الكسى 15،وتنقسم هذه الابزايم الى قسمين النوع الأول عبارة عن صفيحة من الفضى مثلثة الشكل او مستديرة تلبس دائما زوجين متصليين بسلسلة او سلسلتين تتوسطهما في الغالب علبة مستطيلة الشكل و دورها تثبيت اللباس على مستوى الكتفين لسان وحلقة مفتوحة ، اما النوع الثاني فهو ابزيم مستدير الشكل،وبزخارف مخرمة ودورها تثبيت طرفي الدثار الذي يغطي كتفي المراة و ظهرها بواسطة لسان

موجود داخل تجويفها المركزي وتوضع تحت الرقبة ، كما تستعمل المراة نوع اخر من البزايم في المنيعة يعرف ب "تاغلت " او "التقليد" 16وهو عبارة عن ابزيمين متصلين بسلسلة علقت عليها عدة علب مختلفة الاشكال ويستعمل كعقد أحيانا ،اما النوع المعروف في غرداية يسمى ب " تيسغنيست " ذي الروؤس المثلثة الشكل والتي يتوسطها حجر شبه كريم .

**الخلالة**

**التقليد**

**الاساور او الحدايد :** عرفت انتشارا كبيرا بالمنطقة وبمختلف الاحجام والأشكال سواء تلك المملؤة او الفارغة او المخرمة وتسمى البسيطة منها عادة المسايس ،ويمتاز سوار "تيسغدرت" 17بحلقة غير مغلقة غليظة وممتلئة لم تستغنى عنه أي عروس غرداوية والنوع الأخرى سمي ب "النبالة" هو عريض

نوعاما تميزه الاشكال البارزة التي تشبه القباب والسيقان بالإضافة الى الحبيبات والاسلاك المعدنية 18

**أساور**

**حلقة الرجل او الخلخال :** وهو الأكثر شيوعا بالمنطقة والمعروف ب " الدوادي " له شكل حلقة عريضة مخرمة يقفل بمساك في احد طرفيه ، اما الرديف فهو عبارة عن حلقة دائرية سميكة زخرفته مكونة من خطوط مقوسة او مستقيمة وتظهر حافتاه على شكل راس ثعبان ومنه البسيط والمضفور ويسمى ب " البريم او المبروم " 19 ويرمز عند اغلب الجزائرين الى الخصوبة والحمايةمن العين والارواح الشريرة

كما يوجد النوع الشائع بالمنيعة المعروف ب " خلخال بوعمود" وهو حلقة عريضة وبحافتين دائريتين وزخرفة هندسية متنوعة 20.

**الخلخال الذوّادي**

**المحابس :** متنوع الاشكال منها البسيطة التي تلبس في جل الأيام وأخرى التي تلبس ففس المناسبات وتكون مزينة بالحبيبات والاسلاك المعدنية لصبح أكثرا تعقيدا بزخرفتها البارزة ،كما تتزين المراة عندنا بخواتم منطقة تيدكلت وهي خواتم على شكل اهرام او جدع مخروطي سمي ب " تيسك "

**أهمية الحلي عند المرأة بغرداية :**

تسمى الحلي المتاع الذي خف حمله وغلى ثمنه ومع هذه التسمية يراها أحد المهتمين بكتابة التراث الجزائري و هو جورج مارسيه أنّ الحلي سبائك متنقلة أكثر من ما هي جمالية فهي

مدخرات صالحة للتبادل وتباع عند الحاجة، وهذا أكدته لنا بعض النسوة ممن التقيناهم في الموضوع بقولهم المشعور ليومنا هذا «الحدايد للشدايد» و«الزينة خزينة»، بمعنىأن هذه الثروة المكتنزة يستعان بثمنها عند الضرورة والحاجة21 .

والحلي يعبر عن المستوى الاجتماعي مثاله أن المرأة الصحراوية كانت ترتدي عقدا يتكون من سلاسل تنتهي بقطع نقدية فضية يقال أنها مهر وصداق المرأة.

عدا هذا فللحلي دور وقائي أيضا بحيث تستعمل للتداوي وعلاج الأمراض ويكون ذلك حسب المواد المستعملة فيها ، فالحلي المرصعة بالمرجان أو العقيق تساهم في توقيف نزيف الدم، والجدير بالإشارة أنّ ما يميز المرأة الغرداوية هو تفضيلها للحلي الفضية على عكس المرأة الحضرية في المدينة التي تفضل الحلي الذهبية.

ويعود ذلك لأسباب أهمها:

- غلاء معدن الذهب مقارنة بالفضة إذ إعتذر وصعب على سكان الصحراء اقتناءه .

- تفضل الفضة لتلاءم لونها الداكن لبشرتها المتميزة بألوان طبيعية ناتجة عن ممارسة أعمالها اليومية تحت ضغط الظروف الطبيعية.

- للاعتقاد السائد أن اللون الأبيض يرمز للصفاء والنقاء والراحة في حين اللون الأصفر يرمز للمرض

إذا كان العمل المنسوب إلى الشمس فمعدنه ذهب، وإذا كان العمل المنسوب إلى القمر فمعدنه فضة .

وعليه فقيمة الحلي لا تكمن في إبراز جمال المرأة فحسب بل تتعدى ذلك إذ أنها ذات قيمة تاريخية و اقتصادية واجتماعية ، و تبقى في نظر المرأة كذلك دون أن تتخلى عن وظيفتها ودلالاتها الرمزية .

لذا يجب الاهتمام بهذه الجانب من التراث الوطني وإعادة إحيائه لأهميته الحضارية والإنسانية ، ولما له من تأثير في إحياء الشخصية الجزائرية، ولاشك أنه سيكون له الدور الكبير في مجال إحياء الاقتصاد الوطني عن طريق التشغيل في مجال حرفة الصياغة كصناعة تقليدية بالصحراء الجزائرية وباقي ربوع الوطن .

## الهوامش:

1 نواصر جمعة , تزين المراة في القديم , لقاء في بيت السيدةجمعة يوم2016/01/15 ساعة 10:20 د الساكنة بحي بلبشير المنيعة .

2 حساني مختار، الحواضر والامصار الإسلامية الجزائرية ، دار الهدى عين مليلة الجزائر ط 2011،ج5 ،ص268.

3 الشواهد والمقتنيات الاثرية الموجودة بمتحف المنيعة العمومي المختص في أثار ما قبل التاريخ .

4 عرفت منطقة المنيعة النشاط البشري منذ آلاف السنين في فترة ما قبل التاريخ للعصر الحجري الأوسط وللعصر الحجري المتأخر والحديث ما بين 10 آلف سنة إلى 03 آلف سنة قبل الميلاد وتشهد على هذا ورشات التقصيب المنتشرة في المنطقة ،ويستمر هذا النشاط البشري في فترة التاريخ القديم

5 Gabus ( j) sahara ,bijou et technique ,neuchatel ,1982 ;p 168.

6 العنبر: هو نوع من الطيب معروف ، موطنه البحر ، وقيل يستخرج من بطن حيوان بحري وقيل نبات بحري ، أنظر معجم، مصطلحات اللغة ص547.

7 لهذه الحلي الطبيعي مكانته الخاصة لدى المرأة فهو كعقد جلاب مثير للانتباه من خلال رائحته الزكية التي تحتم على الناس إدارة وجههم إلى المارة من النساء مرتديات السخاب. وكان ولا يزال هذا احلي موضوع قصائد شعبية حيث تغنى الشعراء به ذاكرين أسماء السيدات اللواتي ترتدين هذا الحلي الجميل مثل حدة والعارم والخضراء وغيرها من أسماء النساء الجميلات ذات السخاب المدلي , بن الحاج يحي يوسف، المرأة في المجتمع المزابي ،دار المطبوعات الجميلة ،الجزائر 1983 ص 96 ، أيضا لقاء عن السخاب مع السيدة ، فروحات خضراء ، بحي بادريان المنيعة يوم 2016/01/18 سا 15.

8 Gabus ( j) sahara ,bijou et technique op.cit.p 1671.

9 تصنع من الفضة على شكل قطع من القماش تتكون من قطعتين واحدة لتغطي الراس والأخرى لتغطي الجبهة وتزخرف بحاشية لتغطي نصف الجبين ،كانت المراة دوما تتزين بها ولا تستغني عنها خاصة أيام المناسبا والافراح ، بن شيخ فاطنة، الفضة عند نساء المنيعة وتقول انهن وجدوا النساء الذين قبلهن بهذا الحلي ، بيتها حي 200مسكن المنيعة 2016/01/19 سا 11.

10 بن الحاج يحي يوسف، المرجع السابق ص 102.

11 يوسف بن الحاج يحي ، المرجع السابق ،ص 104

12 مصاطفى حدة ، لا استغناء عن الشنافات وتقول انه نساء اللواتي قبلهن لم يستغنوا عن الشنافات والذي كان يعلق على البخنوق او اللوقاية ، ببيتها حي قصر بلقاسم المنيعة ، يوم 2016/01/22 سا 16.

13 EBERHARDT.isabelle :le major.document electronique

14 الفرق بين العقد والقلادة هو أن الأول مكون من مجموعة من القطع الصغيرة المثقوبة والتي تكون مماثلة غالبا مصفوفة جنب إلى جنب في خيط يعلق في الرقبة، أما الثانية فمكونة من قطعة واحدة قد تكون كبيرة كما قد تكون صغيرة بها ثقب ثم تعلق في الرقبة وغالبا ما تحمل القلائد رموز ذو أبعاد دينية ، عمير مباركة ، زينة المراة وحليها عند نساء غرداية ، رواية شفوية مع السيدة بيتها بحي القمقومة ،متليلي ، 24جانفي 2016 سا 10.

15 الكتانــة : أو لكسا أو الملحفة كما تسمى في بعض المناطق و هذا اللباس تقريبا يستعمل في أغلب مدن الوطن خاصة المناطق الصحراوية لكنّه يختلف من منطقة لأخرى باختلاف عاداتها و تقاليدها و هو عبارة عن قطعة قماش تكون في حدود 8 أمتار يقسم لنصفين جزء علوي وجزء سفلي ثم يوصل حيث يخاط و يوضع له خيط

مطاطي عند الخصر يخاط به شريط صوفي بلون معين ، فروحات خضراء ، بحي بادريان المنيعة يوم 2016/01/18 سا 15

16

17الحاج أيوب إبراهيم بن يحي ،رسالة في بعض أعراف وعادات وادي مزاب ،تحقيق يحي بن بهون حاج أحمد ، دار مساحات المعرفة ،2015الجزائر عاصمة الثقافة ج1،ص145،

18 تلبس الاساور في معصم اليد قدتكون مفتوحة وتكون مغلقة ، بعضها مكون من قطعة واحدة مثل تلك المصنوعة على شكل حلقات من الفضة ، رواية شفوية عن السيدة نواصر جمعة يوم2016/01/15 ساعة 10:20 د الساكنة بحي بلبشير المنيعة.

19 فروحات خضراء ، نفس اللفاء.

20 بن شيخ فاطنة ، وتقول نها لليوم ترتدي الخلخال وتعتبره ارث لابد من الحفاظ عليه ، وتقول انه يحميها من الامرض والعين خاصة نوع الذوادي والمبروم .

21 مصاطفى حدة ، والسيدة نواصر تقريبا اتفقوا على نفس الكلام لاهمية الحلي عند المراة الصحراوية .